



أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني

د. كمال بن صحراوي

أستاذ محاضر في التاريخ الحديث
جامعة ابن خلدون - تيارت
الجمهورية الجزائرية



بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث
قسم التاريخ وعلم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران - الجزائر (يناير ٢٠١٤).
عدد الصفحات ٣٩٦

كلمات مفتاحية:

الغرب الجزائري، الاحتلال الإسباني، الإدارة الفرنسية، المجتمع الريفي

مع الوقت إلى انتفاضات أثرت على الحياة العامة خاصة في الريف.

من جهة أخرى؛ يجاور بايلك الغرب المغرب الأقصى، ولا يخفى الصراع الذي كان بين الأشراف والعثمانيين، ومن هنا مثل هذا البايك مجالاً جغرافياً كثيراً ما تداخل فيه المغرب الشريفي والجزائر العثمانية، وتأثرت بهذه التجاذبات الفئات المختلفة من سكان الريف خصوصا تلك التي كانت مستقرة على مقربة من الحدود. من ناحية ثالثة نرى تركيز اهتمامات حكام الجزائر تدريجياً على الداخل في أواخر العهد العثماني بدل الاعتماد على مداخل الأسطول البحري، بعدما اعتراها من تراجع بسبب اختلال التوازن بينه وبين الأساطيل الأوربية، وهو ما جعل قضية الاعتماد على الريف ومداخله ومواده الأولية تصبح من أولويات السلطة العثمانية في الجزائر، ولذلك اعتبرته القاعدة التي ارتكز عليها حكمها بشكل واضح.

لكن هل أخذت هذه السلطة بعين الاعتبار مسألة الاهتمام بالريف أيضا من باب تطوير جوانب الحياة المختلفة فيه وتشجيع الطاقات المحلية على العمل الزراعي ومزاولة النشاط الصناعي وتنشيط الفعل التجاري، أم أنها اقتصر على توفير المناخ الذي يخدم مصالحها دون الالتفات إلى الداخل وحاجاته الأساسية، خاصة وقد تحولت الضرائب التي فرضتها الظروف المستجدة في حياة الإيالة إلى واحدة من عوامل التأثير البالغ على

مقدمة

ناقش الأستاذ كمال بن صحراوي في كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بهرا (الجزائر) رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث موسومة بـ "الأوضاع العامة في ريف بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني" ونال بها درجة "مشرف جدا" إضافة إلى تشجيع من لجنة المناقشة على نشرها، وهذا عرض موجز لما ورد فيها.

ما زالت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية من تاريخ الجزائر في العهد العثماني تستقطب اهتمام الباحثين والدارسين، ومازالت رغم هذا الاهتمام تحتاج إلى مزيد من الدراسات التي تعمق الفهم وتزيل الغموض عن القضايا الخفية من هذا التاريخ. ولعل من بين هذه الجوانب دراسة تاريخ بايلك الغرب الذي عرف ظروفا خاصة بحكم السيطرة الإسبانية على وهران، إحدى أهم مدن هذا الإقليم، وهو ما جعل البايك يعيش تجاذبا قويا باعتباره احتوى نقطة الاحتكاك بين الإيالة وإسبانيا. وإذا كان الوجود الإسباني قد أدى في المنطقة إلى قيام تحالف قوي بين السلطة العثمانية وكثير من رجالات الطرق الدينية والعلماء خلال زمن ليس بالقصير، فإن تحرير وهران قد أدى - في فهم كثير من القيادات السياسية والدينية في البايك آنذاك - إلى زوال مبرر التحالف، وهو الأمر الذي شجع على قيام تنافر قوي تحوّل

- النمو الديمغرافي في الريف في بايك الغرب والعوامل المؤثرة فيه كالمجاعات والأوبئة والحروب.
- العلاقات الاجتماعية بين مختلف فعاليات المجتمع الريفي؛ بين السلطة والشعب، بين زعماء الطرق الدينية وأتباعهم، بين قبائل المخزن وقبائل الرعية.
- طبيعة المؤسسات الدينية والتعليمية وهيكلتها ودورها في تعبئة المجتمع الريفي
- النظام القضائي ومميزاته.

وقد يكون منطلق هذه الدراسة نابغاً من بعض الميول الشخصية قصد التعرف على جزء من تاريخ بايك الغرب بحكم الانتماء إلى الجهة الغربية من الجزائر، لكن هذه الرغبة الشخصية توفرت لها أسس علمية جعلتها تترسخ أكثر، وذلك لأن الإهمال ظل يكتنف دراسة موضوع الريف، ولأن الغموض ظل يحيط بها رغم أهميتها في فهم التحولات الاجتماعية والتفاعلات الاقتصادية، بل حتى في فهم التطورات السياسية التي عرفت الإيالة بناء على ما أفرزته طبيعة العلاقة بين السلطة والسكان.

وقد استقطبت دراسة موضوع بايك الغرب اهتمام مجموعة قليلة من الباحثين الذين أنجزوا أعمالاً أكاديمية كمذكرة الماجستير التي أعدها توفيق دحماني حول "النظام الضريبي ببايك الغرب الجزائري وأواخر العهد العثماني" والتي بين من خلالها طبيعة هذا النظام وتداعياته على الحياة العامة بالبايك وعلى علاقة السكان بالسلطة. ومذكرة الماجستير التي أنجزتها رشيدة شكري معمر بعنوان "العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر خلال فترة الدايات" والتي أبرزت من خلالها دور العلماء في مجتمع بايك الغرب وتطور علاقتهم بالسلطة العثمانية على مرحلتين تميزت الأولى بالتفاهم وانطبعت الثانية بالخلاف الذي انتهى بالمواجهة.

هذا إضافة إلى مذكرة الماجستير التي عنوانها "العلم والعلماء في بايك الغرب" لقدور بوجلال والتي ركز من خلالها على حاضرتي مازونة ومعسكر، ومذكرة الماجستير التي كانت من إنجاز الواليس فتحة حول "الحياة الحضرية في بايك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر" والتي رسمت من خلالها الإطار العام لحواضر البايك ووظائفها المختلفة، ورسالة الدكتوراه ذات الصلة بالموضوع لمنصور مرقومة تحت عنوان "القبليّة والسلطة والمجتمع في الجزائر، بحث أنثروبولوجي في المجال السياسي التيهرتي" والتي أبرزت من خلالها بنية المجتمع الريفي في جزء من بايك الغرب وهو جهة تيهرت والتحولات العميقة التي عرفت القبيلة هناك.

ومن أجل تغطية الموضوع بما يكفي من الدراسة اتبعت منهجاً تاريخياً تركيبياً على سبيل الاستقراء، تحليلاً ومقارنة ونقداً محاولاً الخروج بصورة متكاملة تساهم في تعريف القارئ

سكان الأرياف، وهو ما انجرت عنه ظاهرة ترك الرعية لأراضيها في كثير من المناطق واللجوء إلى حياة الترحال حتى تنجو من قبضة السلطة، وقد ترتب عن ذلك تأثير واضح على البنية الاجتماعية الريفية.

جدير بالذكر أيضاً أن العثمانيين جعلوا السلطة الفعلية في الأرياف في أيدي القوى المحلية حيث حافظوا على النظم التقليدية للقبائل من حيث التسيير والتنظيم وجمع الضرائب، وكان هذا في نظر هؤلاء الشيوخ نوعاً من الامتياز تمنحهم إياه السلطة العثمانية، لكن ذلك مثل في نظر هذه السلطة استراتيجية فعالة انتهجتها للإبقاء على وجودها. لقد انعكست هذه الظروف بشكل عام على الحياة العامة في البايك سواء الحياة الاجتماعية أو الحياة الاقتصادية، أو ما عرفه البايك من تحولات سياسية كبرى، وانعكست بالضرورة على سكان الريف من حيث كثرة المجاعات والقحط وقلة الأمن وكثرة الثورات وتسلط مجموعات موالية للسلطة على بقية الرعية. من هنا ارتأينا البحث في أحوال الريف في بايك الغرب ضمن موضوع موسوم بـ: "أوضاع الريف في بايك الغرب أواخر العهد العثماني"، وهو موضوع يمنحنا الفرصة للتعامل مع إشكاليته من خلال الإجابة على كثير من التساؤلات المتعلقة بـ:

- حدود مساهمة الريف بقبائله المختلفة في الحياة السياسية؛ قبائل المخزن، القبائل الممتنعة، القبائل المساندة للوجود الإسباني... أي مساهمة الريف في دعم الوجود العثماني ضمن استراتيجية التحالف، أو مساهمته في تقويض دعائم سلطة البايك من خلال البحث عن بدائل كانت في نظر بعض أبنائه "حيوية" كالإسبان في وهران والمغرب الشريف على الحدود الغربية.
- حجم تأثير الريف بالأحداث السياسية الكبرى كالخلافات مع المغرب وتحريم وهران الأول وخروج الإسبان نهائياً منها وانتقال العاصمة إليها من معسكر، وقيام الثورات الكبرى كثورة درقاوة التي غطت مناطق واسعة وهددت الوجود العثماني بقوة، حتى جند لها العثمانيون قوات كبيرة خاصة بعد إدراكهم لغاياتها السياسية البعيدة.
- طبيعة النشاطات الاقتصادية الرئيسية التي كان المجتمع الريفي يزاولها في بايك الغرب ويعتمد عليها للحفاظ على "وجوده" في ظل انشغال السلطة العثمانية عن التكفل باهتماماته المختلفة.
- وضعية الأراضي من حيث الملكية (ملكيات خاصة، أملاك البايك، أراضي العرش، أراضي الوقف...) وأثر ذلك على الفعل الزراعي.
- حدود التعاملات الاقتصادية بين الريف والمدينة.
- حجم مساهمة الريف في خزينة البايك من خلال الضرائب المختلفة.

المجموعة الأولى - ANOM MI Série B B-4B9 / Sous
Série 2B1 وتحتوي وثائق تعود إلى تسعينيات القرن الثامن عشر الميلادي، وهي في معظمها حول صفقات تجارية بين البايك والوكالة الإفريقية لتزويد المجتمع الفرنسي بما يحتاج إليه من قمح وشعير. وتُقدم هذه الوثائق معلومات عن كمية كل شحنة وقيمتها المالية، والسفينة المكلفة بنقلها إلى مرسيليا والقبطان المشرف على العملية.

المجموعة الثانية ANOM, MI, 66mim/36 تعود إلى أربعينيات القرن التاسع عشر الميلادي وتحتوي معلومات هامة للغاية حول "الأسواق العربية" في أرياف كل من معسكر، تيارت وسعيدة من حيث أماكنها وأيام انعقادها والقبائل التي ترتادها والمواد التي تُوقَّر فيها، وهو ما يسمح بمعرفة الإنتاج الريفي وطبيعة التبادل التجاري بين القبائل بناء على حاجاتها الأساسية. ضف إلى ذلك مكانة بعض منتجات غرب الجزائر كالزربية والفليج، والتي تتضح من خلال المشاركة بهما في معارض دولية كذلك المنعقد في لندن سنة ١٨٦٢م.

وفي ذات المجموعة نجد وثائق تقدم معطيات أساسية حول مطامير غرب الجزائر، ومعلوم أن البايك كان يركز كثيرًا على المطامير فيقيم الحراسة عليها ويمرر الطرق بالقرب منها ضمانًا لتسهيل نقل محتوياتها. والوثائق محل الحديث تقدم معلومات عن أسمائها وأعدادها وأماكن تواجدها على مستوى القبائل، والدواوير التي كانت تشرف عليها، وكميات القمح والشعير التي تحويها، وحالة السرية التي تكتنفها.

المصادر المحلية

بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين
بوهران من الأعراب كبني عامر لعبد القادر المشرقي، مصدر أساسي في دراسة الريف لأن صاحبه انشغل بالعلاقات "المشينة" التي جمعت الإشبانيين وكثيرا من القبائل في بايك الغرب حتى تحولت إلى خادمة لهم، وراح يفضح أعمال هذه القبائل بعد أن فصل الحديث عن أصولها عربية كبني عامر وأمازيغية ككرشلت وغمرة، ويبين موقف الشرع من أفعالها، ويحذر الناس أن يحذوا حذوها. ومن هنا كمنّت أهمية المصدر في كونه بين لنا بوضوح أهم الأسباب التي أدت إلى طول فترة الاحتلال الإشباني لوهران والمرسى الكبير، ونقصد الدعم الذي لقيه الإشباني من هؤلاء "الأعراب" الذين تحولوا إلى قاعدة خلفية تمد المحتل بالموونة وتجمع له الأخبار وتشارك نيابة عنه في غزو قبائل أخرى.

رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب
الصحراوي الجزائري، رافق صاحبها ابن هطال الباي محمد الكبير خلال انتقاله إلى عين ماضي لتأديب التيجانية، وسجل تفاصيل هذه "الرحلة" بدقة. وتكمن أهمية المصدر في كونه نقل إلينا صورة عن حالة البلاد التي سادها خروج كثير من القبائل في الريف على طول الطريق بين معسكر وعين ماضي عن سلطة

بريف بايك الغرب والظروف التي عاشها في ظل الحكم العثماني خصوصًا في فترته الأخيرة. غير أن مجموعة من الصعوبات اعترضت إنجاز هذا العمل منها:

- قلة الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الريف في بايك الغرب بصفة مباشرة، وهو ما جعل الحصول على المادة العلمية يتطلب وقتًا طويلًا وجهدا مضاعفا.
- قلة المادة العلمية ضمن المصادر المحلية وتناثرها ضمن صفحاتها في أحسن الأحوال، وذلك راجع لعدم تخصيص أي منها لموضوع الريف وتفاعلاته المختلفة، وهو ما قلل من فرصة استغلالها رغم أننا استخدمناها بشكل كافٍ دون إقصاء أي منها.
- اهتمام الكتابات الأجنبية خصوصًا الفرنسية ببعض جوانب الدراسة كتاريخ وهران وقبائل المنطقة الغربية وطبيعة جغرافيا البايك ووضع الأرض ونوعية الملكية ودور الطرق الدينية ومسار ثوراتها لاسيما الدرقاوية والتيجانية، وعادات السكان وتقاليدهم وغيرها، وهو ما جعلنا أمام حتمية الاعتماد عليها مع الحذر الدائم منها، وهذا لكثرة ما لاحظناه من الاختلاف فيما بينها، ولكون كثير منها أنجز لتمرير مجموعة أفكار تبرر الظاهرة الاستعمارية وترفع القلم عن ممارسات الاحتلال الفرنسي، وهي بذلك إما جزئية وإما متحيزة على حد تعبير بيار بوايي.
- عدم وفرة الوثائق الأرشيفية الخاصة ببايك الغرب، على عكس ما يتعلق بدار السلطان وبقية البايكات، وهو ما جعل الباحثين يُقرون بصعوبة معالجة تاريخ الغرب الجزائري، كالفرنسي بيار بوايي الذي اعتبر إنجاز دراسة عن إيالة الجزائر كلها يقود إلى طرح أقل حيوية وإيحاء، وكالأستاذ ناصر الدين سعيدوني الذي نبّه إلى الإشكالية المتعلقة بصعوبة دراسة الوقف في بايك الغرب نظرا لعدم وفرة المادة العلمية.

إن الرغبة في إخراج العمل في صورة تليق بأهميته جعلتنا نعتمد على مصادر متنوعة، ذلك أن دراسة تاريخ الريف تقتضي بالضرورة تداخل جهود المؤرخ والاقتصادي والفقهاء والأديب والأنثروبولوجي والسياسي والعسكري لتكوين صورة شاملة لما كان من تفاعل خارج أسوار المدينة، ولذلك حاولنا الاستفادة من كل هذه الكتابات بناءً على ترتيب منهجي اقتضاه استغلال ما توفر من المصادر والمراجع باللغتين العربية والفرنسية، والتي يمكن أن نجمل أهمها فيما يلي:

الوثائق الأرشيفية

مجموعة وثائق حصلنا عليها من مركز أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفونس:

البايك برفضها دفع الضريبة، وهو الوضع الذي عزم البايع على تغييره، وفي هذا الإطار ذكر المؤلف بشجاعة كبيرة طريقته لتحقيق ذلك، أي طبيعة تعامله مع الرعية حيث أُرهب القبائل التي مر بها حتى دفعت له الكثير استرضاء له واتفق لبطشه، ورغم ذلك لم يسلم بعضها من القتل والأسر والسلب والنهب.

الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي الذي كان ملازماً لبلاط البايع محمد الكبير مكلفاً بتأديب ولده وولي عهده عثمان. وتكمن أهمية المصدر في أنه ركز على حياة البايع الكبير والمناصب التي تقلدها قبل توليه مسؤولية البايع، وعلى دوره في تنظيم الرباطات التي انتهت بتحرير مدينة وهران وطرد الإسبان منها نهائياً سنة ١٧٩٢م. ورغم أن المصدر لم يكن حول الريف خصيصاً، فإنه يعطينا فرصة للتعرف على الحياة الريفية من خلال الحديث عن بستان البايع وداره بناحية كاشرو، واهتمامه بالعلم وأهله في الأرياف، ومنعه إقامة الأسواق في غير ضواحي الرباط ليسهل تموين المرابطين وأسره وأثر ذلك كله على الأرض واستغلالها، صف إلى ذلك مسألة فتوى العلماء في دماء القبائل القاطعة للطريق وما نتج عن أعمالها من قلة الأمن وفساد المعيشة.

عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لأبي راس الناصر الذي لم يكن حاضراً زمن حصار البايع الكبير لوهران ورغم ذلك فإن الأخبار وصلته وهو في تونس، ولقد لاحظ انتشارها في مدن تونسية كثيرة كسوسة وصفاقص والمنستير وجربة، وهو ما شجعه على كتابة قصيدته السينية "نفيضة الجماني في فتح ثغر وهران"، غير أن بساطة أسلوبها جعلته يحولها إلى تأليف يحمل العنوان المذكور سابقاً. وقد ضمن أبو راس تأليفه هذا أخباراً هامة تتعلق بالحصار والتحرير والعلماء المشاركين فيه والقبائل المتعاونة مع الإسبان، إضافة إلى مواضيع أخرى متشعبة بعيدة عن موضوع الفتح. والملاحظ انتصار أبي راس للبايع في كتاباته التي لم تخل من مدح البايع وسياساتهم، ومن ذم المعارضين لهم خصوصاً درقاوة التي ألف فيها كتاباً مازال في حكم المفقود عنونه بـ "درء الشقاوة في حرب درقاوة". وهو موقف لم يتفرد به أبو راس حيث كان ابن هطال مثلاً قد ساند البايع ضد معارضييه، وأشاد بما قام به "سيده" " قانع المبعضين ومدوخ المارقين" البايع محمد الكبير، بل قدم حياته ثمناً لهذا الولاء حين لقي حتفه في معركة فرطاسة وهو يساند البايع المنزالي ضد ابن الشريف الدرقاوي.

مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، وهو مصدر عايش صاحبه كثيراً من الأحداث التي عرفتها إيالة خلال خمسين سنة الأخيرة من عمرها، وتكمن أهميته في أنه أطلعنا على تاريخ الدايات المتأخرين بدءاً بالداي علي بوبصاع (١٧٥٤م) وأهم ما ميز فترة حكم كل واحد منهم، وفي خضم ذلك جاء ذكر أحداث سياسية كثيرة لها علاقة ببايع الغرب كالحروب مع الإسبان، ولكن الأهم من هذا بالنظر إلى

الموضوع المدروس هو بيان مراسيم تقديم الدنوش والمبالغ التي تخصص لذلك، والتكاليف التي يتحمل أعباءها سكان الريف. هذا كله إضافة إلى الحديث عن انتفاضة التيجانية وعن حركة درقاوة التي نعت الزهار قائدها ابن الشريف بالثائر. والملاحظ هو عدم انسياق الزهار وراء التيار الرافض لكل هذه الثورات، حيث لم ينعته بنعوت سيئة، بل ذكر أصحابها ببعض الخير. فقد وصف والد التيجاني بالصلاح، وأقر بزيارته هو لزواوية التيجاني بفاس سنة ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م).

أنيس الغريب والمسافر للكاتب الخبير مسلم بن عبد القادر الحميري باش دفتر بايات وهران، والمتوفى سنة (١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م) المدفون بسيدي المسعود من بلد تارقة، ترجم أدريان دلباش كتابه ونشره فصولاً في المجلة الإفريقية سنة ١٨٧٤، وهو من أهم المصادر التي عالجت تاريخ بايات وهران، وفصلت الحديث خصوصاً عن ثورة درقاوة.

المرأة لحمدان خوجة، مصدر هام أرخ لإيالة الجزائر وقدم إحصاءات هامة عن الأرض والسكان والضرائب، كما تحدث عن الإدارة وعلاقتها بالقبائل المختلفة، وعن البايعات خصوصاً وأخر العهد العثماني، ومن ذلك مثلاً حديثه عن البايع حسن بن موسى ودوره في سقوط وهران في يد الاحتلال الفرنسي. كما تكمن أهميته هذا المصدر في كونه فصل الحديث عن "سكان الجهة الغربية" في الفصل السادس من الكتاب الأول، حيث تحدث عن صفات سكان تلمسان، مليانة، وهران ومعسكر، وعن أخلاقهم وعاداتهم ونشاطاتهم الاقتصادية. صف إلى ذلك حديثه عن بايع الغرب الذي اعتبره أقل خصباً وأقل اتساعاً من بايع الشرق.

القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم للطيب بن المختار الغريسي، المتوفى سنة (١٢٢٠هـ / ١٩٠٢م)، وقد مكنتنا من معرفة قبائل الوطن الغريسي، بل وكثير من قبائل الجهة الغربية باعتبار الحركة الدائمة التي كانت هذه القبائل تخضع لها. وفي خضم هذه التعريفات والتراجم أورد المؤلف حقائق تاريخية كثيرة عن أواخر العهد العثماني ودور الحشم خاصة في التحولات السياسية التي عرفها البايع حين اشتدت ضده الثورات الدينية. كما تحدث المؤلف عن علاقات هذه القبائل بعضها ببعض ضمن إطار "الخدمة" التي يقتضيها عامل "النسب الشريف" الذي اهتم ببيان أسسه، وبفضح القبائل التي صارت تدعيه وهي في الأصل "غير شريفة". وهذه مسألة كانت في غاية الأهمية آنذاك لأنها ساهمت في بناء سلم اجتماعي معين.

دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران للزياني، مؤلف هام خصصه صاحبه للحديث عن وهران وباياتها والثورات التي اندلعت ضدهم، وقد فصل الحديث عن ثورة درقاوة تفصيلاً، وبيّن تأثير سكان الريف بها، ولم يخف معارضته لها. فقد كتب متحدثاً عن تولي المقلش بعد المنزالي الذي هزمه ابن الشريف: "فتفسح الناس وانفرج المضيق،

١٦٩٢م) حتى الغزو الفرنسي، وقد تُرجم قسم منه تحت إشراف ألبير دوفو Albert Devoulx ونُشر سنة ١٨٥٢م تحت عنوان

Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger.

المراجع

دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية؛ الفترة الحديثة لناصر الدين سعيدوني، مرجع ذو صلة أساسية بالموضوع المدروس، وقد ضمّنه صاحبه تحليلات عميقة للسياسة العثمانية المنتهجة في المجال الاقتصادي ولطبيعة التحولات التي عرفها المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية. وقد استفدنا منه على الخصوص فيما يتعلق بأنواع ملكية الأراضي في الريف وطرائق استغلالها، وبأنواع الضرائب وكيفية جبايتها، وردود أفعال المجتمع الريفي تجاه السلطة التي تفرضها. كما عرج المؤلف على حياة الفلاح وقدرته على التحايل على الظروف الصعبة التي كان يعيشها اعتمادا على تقنياته البسيطة التي استطاع من خلالها التأقلم مع بيئته، وهو ما مكّنه في النهاية من خدمة الأرض وتربية الحيوانات وتطوير الإنتاج بشكل يتلاءم إلى حد بعيد مع ما يملكه من إمكانيات.

تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين (١٦م - ٢٠م)، لأبي القاسم سعد الله، مرجع هام استفدنا منه فيما يتعلق بالحياة الثقافية ببايك الغرب، ودور المؤسسات الدينية ورجالها في دعم الفعل الثقافي بل وحتى في الحراك السياسي، حيث أطلعنا على حياة العلماء وزعماء الطرق الدينية والزوايا، وبيّن دور الشعراء في المجتمع من خلال أغراض الشعر المختلفة خصوصا الشعر السياسي. كما عرّج في خضم ذلك كله على كثير من العادات والتقاليد التي عرفها المجتمع الريفي وعلى الأحوال الصحية مستفيدا مما جاء في بعض كتب الرحالة.

تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسولوجية لعبد القادر جفلول، كتاب هام احتوى تحليلاً لأوضاع الريف الاقتصادية والاجتماعية، خصوصا وضعية الملكية وأحوال الفلاحين البسطاء، ودور العائلة في الإنتاج، وأهمية أسلوب التوزيع في دعم الفعل الزراعي آنذاك، إضافة إلى بيان طرق استغلال الأرض ووضع الخماس ضمن هذه المنظومة الزراعية. ويجدر بي ذكر أهمية مؤلفات الدكتور يحيى بوعزيز حول تاريخ وهران وبعض مدن الغرب الجزائري، وهي مؤلفات أثرت المكتبة الوطنية. ففيما يخص تحرير وهران من الاحتلال الإسباني اعتمدنا على كتاب "المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدرّيد (١٧٨٠م - ١٧٩٢م)" بينما استعنا بكتاب "مدينة وهران عبر التاريخ" وكتاب "مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" عند تطرقنا لقضايا تهم المدينتين.

وأمنت من حينه الطريق، وهبت رياح النصر وخفقت أعلامه، وضاق متسع العدو وأظلمت ليلاليه وأيامه، وصار (هكذا) الحرب لأهل وهران عيدا، وعدوهم بين أيديهم صيدا، فكان قدوم هذا الباي عليهم سعدا، وملاقاته إياهم فوزًا ومجدًا، قال الشاعر:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا
وكوكب المجد في أفق السما صعدا"
وقال في موضع آخر: "فأفنى المخزّن عامّة درقاوة أهل الضلالة والشقاوة".

المصادر الأجنبية

تقرير يوسف باسيليو دي أرومبورو، الذي عُين حاكما على وهران والمرسى الكبير سنة ١٧٣٨م، وهو تقرير طويل اشتمل على (٦١) صفحة مخطوطة نشرها محمد القورصو و ميغيل دي إيبالزا عام ١٩٧٨م. وتأتي أهمية التقرير من أنه كُتب بأمر من ملك إسبانيا فيليب الخامس للإجابة على تساؤل كان يشغل بال الطبقتين السياسية والعسكرية ويتعلق بالبقاء في وهران أو الانسحاب منها. وقد احتوى التقرير معطيات هامة جدا عن الإجراءات التي اتخذها المستعمر الإسباني للتمركز في الأرض، وعن العلاقات القائمة بين الإسبان من جهة وبين القبائل والأترك من جهة أخرى، مع وصف للأراضي المحتلة، كما يتحدث عن مشاكل قبائل المنطقة الوهرانية، والضرائب التي كان الإسبان يحصلونها منها، وثروات المنطقة وغيرها من المسائل الهامة الجديدة بالاطلاع.

أما مؤلفات الأوربيين الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني إما موظفين وإما رحالة فهي لاتخلو من فائدة، ذلك أنها نقلت إلينا كثيرا من الحقائق حول يوميات الجزائريين والحالة الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها البلاد في ظل الأوضاع السياسية التي عاصرها هؤلاء الكتاب. ومن هؤلاء لوجي دو تاسي L. de Tassy صاحب **Histoire du royaume d'Alger** وقد زار الجزائر عام ١٧٢٥م، والدكتور شو Shaw الذي كان في الجزائر في العقد الثاني من ق ١٨م وألف كتابا سماه **Voyage dans la régence d'Alger** وفونتور دو بارادي Venture de Paradis الذي نقل إلينا صورة عن الجزائر في ١٧٨٩م ضمن كتابه **Alger au 18^{ème} siècle**.

وإذا كانت هذه المصادر لم تعالج موضوع الريف بشكل مباشر، فإنها احتوت على معطيات أساسية تعكس خصوصيات البيئة الريفية وتعطي صورة حول الحياة العامة خارج المدينة، كالعادات والتقاليد والعلاقات العامة وطبيعة التعليم والقضاء ومكانة المرأة ودورها في المجتمع، وحركية القبائل وأدوارها السياسية والعسكرية ونوعية الضرائب المفروضة عليها وغير ذلك من القضايا المتعلقة بالموضوع.

كما تجدر الإشارة إلى مصدر هام جدًا وهو دفتر التشرّيفات لصاحبه محمد الكاتب والذي اعتنى بالفترة من (١١٠٣هـ/

أما المراجع الأجنبية فتميزها الأعمال المنجزة خلال العهد الاستعماري والمنشورة في شكل مؤلفات أو في شكل مقالات ضمن مجلات مختلفة أبرزها المجلة الإفريقية.

المراجع المطبوعة

تميزها أعمال العسكري والسن أسترزي Esterhazy المتعلقة بتاريخ غرب الجزائر تحت الحكم العثماني (١٨٤٠م) وبموضوع مخزن وهران بقبائله المتنوعة (١٨٤٩م)، وهو الموضوع الذي يلتقي في بعض خطوطه العريضة مع ما أنجزه Carette (عضو لجنة الجزائر العلمية وأمينها العام) حول أصول القبائل الأساسية في الجزائر وهجراتها. أما في مجال الحديث عن الطرق الدينية فنذكر عمل Louis Rinn (١٨٨٤م) حول المرابطين والإخوان التابعين للطرق الدينية المختلفة، وهو عمل عززه الكتاب الذي نشره Depont و Coppelani (١٨٩٧م) واشتمل على تفصيلات هامة حول هذه الطرق وهيكلتها ودورها في المجتمع خصوصا الريفي. وفي موضوع متصل نذكر عمل دوماس Daumas (١٨٥٣م) حول عادات وتقاليد الجزائر بمناطقها المختلفة؛ تل، قبائل، صحراء. وحول تاريخ بايلك الغرب منذ تحرير وهران الثاني حتى بداية الاستعمار الفرنسي نذكر ما نشره Lapène عام ١٨٤٢م ضمن "جدول تاريخي حول إقليم وهران" والذي يشابه في بعض محاوره ما كتبه ليون فاي Léon Fay (١٨٥٨) الذي ركز أبحاثه على تاريخ وهران متطرقا إلى آثار السيطرة الإسبانية على المنطقة كلها.

في المجال الاقتصادي تميزت أعمال Mercier (١٨٩١) الذي كتب عن الملكية العقارية وما يتعلق بها، وجاء عمل Couput (١٨٨٩) ليميط اللثام عما كان غرب الجزائر يزخر به في مجال الصناعات الصوفية والصوف كمادة أولية، حيث فصل الحديث عن أنواع هذه المادة الهامة مشيراً إلى امتلاك البايك لسلالات أغنام مختلفة. أما في ميدان العلوم فقد أنجز Gabriel Colin رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الطب عام ١٩٠٥م بكلية الطب بمونبيلي Montpellier تضمنت دراسة معمقة لما في كتاب كشف الرموز لابن حمادوش وطرق العلاج التقليدية التي كانت معتمدة آنذاك لاسيما في الريف، مع إدراج نصوص الكتاب بالعربية في آخره، وهو ما يجعله جديرا بالاطلاع.

المقالات:

اهتم Gorguou بسيرة الباي محمد الكبير وبتاريخ وهران وبايلك الغرب أيام حكمه، فنشر تبعا لذلك مقالين ضمن المجلة الإفريقية عامي ١٨٥٦م - ١٨٥٨م، واهتم في المقال الثاني بالحملات التي قادها ضد الجنوب بهدف إخضاعه. أما Berbrugger فقد كتب مقالا في المجلة الإفريقية (العدد ٠٨) حول عودة الإسبان إلى وهران ثانية سنة ١٧٣٢م بعد أن حررها الباي بوشلاغم مدة ٢٤ سنة، وما ترتب عن هذه العودة من نتائج. في ١٨٧٧م جاء مقال Lespinasse في المجلة الإفريقية

حول قبائل الحشم جهة معسكر، وقد فصل الحديث حول أصولها وعلاقاتها بالبايك وبيقية القبائل، وكانت الحشم معروفة بصفة المشاكسة لأنها قلما هدأت أحوالها. وفي ١٩٠٢م نشرت جمعية جغرافيا وآثار إقليم وهران دراسة مونوغرافية كتبها Fabre حول بلدية تيارت - آفلو المختلطة ضمّنها معطيات هامة حول الأرض وسهولها وجبالها ومواردها المائية وسكانها، معرّجا على تاريخ أهم قبائل المنطقة، وهو ما يسمح بتكوين صورة عامة عن جزء من بايلك الغرب وتفاعل الإنسان فيه مع محيطه الطبيعي.

أما Emerit فقد نشر في حوليات الاقتصاد والمجتمع والحضارة عام ١٩٦٦م مقالا هاما حول القبائل ذات الامتيازات في الجزائر خلال النصف الأول من ق ١٩م، موضحا امتيازات قبائل المخزن مقابل دورها في إخضاع بقية القبائل، ومبرزا من خلال ذلك أهميتها في التمكين لسلطة البايك. وفي ١٩٧٧م نُشر في مجلة الغرب الإسلامي والبحر المتوسط مقال لـ Pierre Boyer حول تاريخ قبائل بني عامر حتى ظهور قانون السيناتوس كونسولت، وقد شرح فيه بالتفصيل المراحل التي مرت بها علاقة هذه القبائل بسلطة البايك متأثرة بخدمتها للإسبان ثم بتحرير وهران النهائي عام ١٧٩٢م. أما حوليات الجغرافيا فقد نشرت سنة ١٩١٧م مقالا كتبه Bernard حول السكن الريفي لدى أهالي الجزائر، ورغم أنه كان يصف السكن كما شاهده في بداية ق ٢٠م فإن ذلك لم يمنعه أبدا من تقديم صورة تاريخية حية لهذا السكن خلال القرون الأخيرة، وهو ما سمح لنا بالتعرف على جزء من مكونات الحياة اليومية التي كان الناس يعيشونها في الأرياف، سواء الأغنياء منهم أو الفقراء، معرجا على مسألة الترحال وأثرها على طبيعة السكن.

وفي سياق مشابه نشرت مجلة جغرافيا ليون في مجلدتها رقم ٣٨ الصادر سنة ١٩٦٣م مقالا هاما لـ Sivignon بعنوان "تطور الترحال في السهول العليا للغرب الجزائري" رسم فيه الخطوط العريضة لظاهرة الترحال وبيّن الحدود الطبيعية التي تبدأ عندها مناطق الترحال في الغرب الجزائري حيث تسود الخيمة وتزول مظاهر الزراعة ويعيش الناس والأنعام في أصعب الظروف التي تفرضها عليهم الطبيعة القاسية، كما عرّج على طبيعة سكن هذه الشريحة من المجتمع محاولا توضيح نوعية علاقة العرّال بصاحب المواشي وما يتعلق بذلك من قضايا مختلفة. أما مجلة التاريخ الحديث والمعاصر في مجلدتها الأول لسنة ١٩٥٤م فقد نشرت مقالا لـ Emérit حول واقع الجزائريين التعليمي عام ١٨٣٠م دافع فيه عن أطروحته التي مفادها أن نسبة كبيرة من الجزائريين كانت في هذه السنة تحسن القراءة والكتابة، مشيرا إلى أثر الدين في ذلك، ومتحدثا أيضا عن الجماعات التي كونت المجتمع الريفي وعن المؤسسات التي كانت تؤطره.

وعن السياسة الدينية التي انتهجها العثمانيون في الجزائر كتب Boyer مقالاً نشر سنة ١٩٦٦م شرح فيه أبعاد هذه السياسة، وبيّن الدور الكبير الذي قامت به المؤسسات الدينية ورجالها خصوصاً في المجتمع الريفي. معرجاً على موقف البايلك من العلماء المخالفين لتوجهاته، وعلى الصراع الذي كان بينه وبين المغرب الأقصى والذي صارت الطرق الدينية طرفاً فاعلاً فيه.

وانطلاقاً من المادة المتحصل عليها اتبعنا الخطة التالية بهدف الإجابة على مجموع التساؤلات التي شغلنا طيلة فترة إنجاز البحث، وبذلك تضمنت الرسالة ثلاثة أبواب، كل باب يتضمّن فصلين.

فأما **الباب الأول** فكان بعنوان "بايلك الغرب؛ إطاره العام ووضعه السياسي" وقد خصصنا الفصل الأول منه لرسم إطاره العام من خلال الحديث عن موقعه وحدوده ثم مدنه الرئيسة بهدف تعريف القارئ به، وذلك بعد بيان أهميته في حياة الإيالة. ثم عرجنا على ما قام عليه البايلك من منظومة إدارية وأخرى عسكرية حافظت على استمرارية سلطة الإيالة به رغم كثرة الصعاب التي واجهت البايات بحكم الظروف الخاصة التي عرفتها منطقة الغرب الجزائري والمتمثلة في الاحتلال الإسباني والصراع مع المغرب الأقصى. ونظراً لأهمية الطرفين المشار إليهما سابقاً كان الفصل الثاني حول التفاعلات السياسية التي عاشها البايلك مع القوى الخارجية المتمثلة أولاً في المغرب الأقصى بحكم محاولات العثمانيين التوسع على حسابه، وما ترتب عن ذلك من ردود أفعال كان الريف جزءاً من البيئة التي تحققت فيها.

أما القوة الخارجية الثانية فتمثلت في العنصر الإسباني من خلال وجوده بوهران والمرسى الكبير واستمالاته لمجموعة من القبائل التي تحالفت معه، فأطالت في عمره وشكلت ثقلاً كبيراً على بقية القبائل من خلال الجوسسة التي كانت تقوم بها لصالحه، والمشاركة في عمليات الغزو إلى جانبه، إضافة إلى المواد الأساسية التي كانت توفرها له. وكان سكان الريف في كل هذا في الواجهة، حيث يضطرون إلى ترك أراضيهم واللجوء إلى أماكن أكثر أمناً ولو كانت غير ملائمة لحياتهم. وزاد من بؤسهم قيام ثوراتٍ بعضها ديني كالدرقاوية والتيجانية وبعضها سياسي كثورة بوكابوس.

الباب الثاني كان حول الوضع الاقتصادي في الريف وقد بدأناه ضمن الفصل الأول ببعض القضايا الأساسية مثل الملكية وما يتعلق بها من معطيات كعدم تفتيتها من قبل البايلك باعتبار أن نية الاستيلاء على الأرض بهدف "الاستيطان" لم تكن واردة لدى الحكام الأتراك، عكس ما سيقع منذ بداية الاحتلال الفرنسي. ثم عالجت مسألة علاقة الريف بالمدينة ومساهمة في دعم اقتصادها، ثم تطرقنا إلى الضريبة بين ما يمليه الواجب الديني لدعم خزينة "الدولة الإسلامية" وبين التعسف الذي تعرض له سكان الأرياف وصار يشكل ثقلاً شديداً عليه،

مدعوماً بثقل آخر شكله سوء الأحوال الصحية وكثرة الأوبئة وسوء الظروف الطبيعية. أما الفصل الثاني من الجانب الاقتصادي فخصصناه للنشاط الاقتصادي الذي مارسه سكان الأرياف بدءاً بالزراعة التي شكلت عصب الحياة الاقتصادية الريفية، ووصولاً إلى التجارة التي تبرز مدى حيوية هذا الوسط الريفي، مروراً بنشاط صناعي ظل محدوداً بشكل عام.

الباب الثالث خصصناه للوضع الاجتماعي، فكان الفصل الأول منه للحديث عن سكان أرياف بايلك الغرب، من حيث العدد والتوزيع والأقسام الكبرى، وذلك بعد بيان أهمية القبيلة في اجتماع هؤلاء السكان، فهي الوعاء الذي ذابت فيه أنانية الأفراد، وهي الإطار الاجتماعي الذي انتظمت فيه مظاهر التضامن بينهم. ولذلك حاول الفرنسيون ضرب المجتمع في الصميم حين روجوا لسلبية الانتماء للقبيلة وما ينتج عنه من "عشائرية"، ليُظهروا في المقابل أن الفضل في جمع شمل القبائل وإحقاق الحق بينها من خلال سيادة القانون إنما يعودان إلى الإدارة الفرنسية.

أما **الفصل الأخير** وهو التفاعل الاجتماعي فتركز البحث فيه على دور الجماعة في تأطير السكان، وهي هيئة تعاقدية أقامها المجتمع لتضييق الخناق على الانفلات الأمني المحتمل بطغيان مجموعة على أخرى في مسائل الميراث وحقوق المرأة والديون وإزهاق الأرواح، أو لتأمين تأطير اجتماعي جاد من خلال مظاهر التضامن المختلفة وعلى رأسها التوزيع. وهذا كله يلفت الانتباه بقوة إلى غياب سلطة البايلك المباشرة في الريف العميق. كما جاء الحديث عن المرابطين والطرق الصوفية لبيان مدى تأثير هذه الشخصيات وهيئاتها الدينية في مجتمع ريف بايلك الغرب من خلال التكفل بالتعليم والفتوى، ولكن أيضاً من خلال تعبئة المجتمع وتحريكه إما للخضوع للبايلك وإما للثورة ضده. وعرجنا في الفصل الأخير على بعض المظاهر الاجتماعية الإيجابية في المجتمع الريفي كالتكافل الاجتماعي والزواج والخصوبة والطعام واللباس والدفاع عن الأعراض ومكانة الشَّعر ودور المرأة والطفل وطبيعة الاحتفالات في الأفراح كالعيد والعقيقة والختان. كما تحدثنا عن بعض المظاهر السلبية في نظر المجتمع آنذاك كشرب القهوة والدخان، ومواقف أهل العلم منها والذين اعتبروها من مظاهر قلة الحياء.

استنتاجات:

كان بايلك الغرب جزءاً من الجزائر العثمانية، وكانت له أهمية كبيرة باعتبار المساحة الهامة التي كان يشغلها، والتي تمتد شرقاً من دار السلطان وبايلك التيطري حتى حدود المغرب الأقصى غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً حتى الصحراء جنوباً مكتسحاً الأطلسين التلي والصحراوي والهضاب العليا الغربية. ويمتلك البايلك بعضاً من أجود الأراضي الزراعية في الجزائر متمثلة في سهول كثيرة أهمها سهول وهران وسيدي بلعباس وتلمسان وغريس والسرسو وسعيدة، كما تجري فيه مجموعة

من الأودية أهمها الشلف في جهته الشرقية، ومينا وواصل والهرة وسيق ووادي الحمام وغيرها. لقد كانت هذه البنية التحتية في الريف كافية لمزاولة مجموعة من النشاطات الاقتصادية وعلى رأسها الزراعة وتربية الحيوانات، ودعم المدينة تبعاً لذلك، غير أن الظروف العامة كثيراً ما أجبرت الفلاح على التحول إلى الرعي وترك الزراعة، وبذلك تخلى عن الاستقرار الذي هو دعامة الفعل الحضاري، وصارت حياته أقرب إلى البدائية منها إلى التحضر.

أما من حيث السكان فقد عرف البايك حركة سكانية واسعة ميزتها الانقسامات التي صنعتها السياسة، حيث صارت القبائل في الريف منقسمة إلى مخزن ورعية ومتحالفين مع النظام هم أقرب إلى المخزن، وقبائل أخرى امتنعت عن دفع الضريبة لكنها دفعت ضريبة من نوع آخر بهجر أراضيها واللجوء إلى الأراضي الجبلية وهوامش الصحراء. ورغم هذا الضيق الذي عرفه سكان الأرياف فإنهم حاولوا أن يعيشوا حياتهم بشكل شبه طبيعي يزاوون الزراعة والرعي حسب مقتضيات الظروف، وينعمون بعلاقات اجتماعية واسعة، ويعيشون بعاداتهم وتقاليدهم، يوظفون شيوخ القبائل ورجال الزوايا خصوصاً في مسائل القضاء والفتوى والتعليم، وحتى فيما تستوجب الحياة اليومية من بيع وشراء وسلم وحرب وصلاح وخصومة.

أما من الناحية السياسية، فقد مثل بايك الغرب الواجهة العسكرية لإيالة الجزائر بقربه من إسبانيا واحتوائه على وهران والمرسى الكبير المستعمرتين منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، ولذلك ظل طابعه مختلفاً مقارنة ببقية البايكات، خصوصاً وقد تأثر بوقوعه على حدود المغرب الأقصى الشرقية من خلال الصراع المستمر بين البلدين والذي انعكس على قبائل المنطقة التي عرفت - في ظل هذه الظروف - حركة مستمرة لم تنته حتى بعد دخول الاستعمار الفرنسي. إن التحالف الذي تم بين الإسبان في وهران وبعض القبائل القريبة منها أمداً في عمر الاحتلال حيث مثل بنو عامر وقيزة وكرشتل وأولاد علي وغيرهم قاعدة خلفية زودت الحاميات الإسبانية بما احتاجت إليه على مدى أكثر من قرنين ونصف القرن. ولذلك كان موقف السلطة والمجتمع على السواء منها موقفاً متصلباً، حيث لم يتوان البايك في قمعها كلما كانت الفرصة سانحة، ولم يتأخر العلماء في فضح أفعالها والتشجيع بها وبيان موقف الشرع منها.

وفي إطار هذه المواقف صارت قبائل بايك الغرب خلال هذه المدة الطويلة مجبرة على النزوح من أراضيها إلى أراضي غيرها، وكثيراً ما اشتد الصراع بينها، وهو ما استغلته السلطة فقربت بعضها وسمته قبائل المخزن لتضغط به على مجموع سكان الريف المعروفين بالرعية، وهم الذين وقعت عليهم أعباء دفع الضريبة وخدمة البايك. وحتى تتفادى خروج بعض هذه القبائل عن طوعها وتضمن مزيداً من الهدوء عمدت إلى استخدام

الشخصيات المرابطية البارزة والقبائل ذات النفوذ الديني. وإذا كانت خزينة البايك قد استفادت من الجهاد البحري زمنياً طويلاً فإنها تأثرت سلباً منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بالتحويلات التي عرفها حوض البحر المتوسط، وهو ما جعل السلطة تلتفت إلى الداخل لتوفر ما يلزمها من أموال، وكان نصيب الريف من هذا العبء وافرًا جدًا. غير أن الضغط الذي مارسه البايك لتنفيذ سياسته هذه لم يمنع من قيام ردود أفعال قوية أطرتها الطرق الدينية في معظم الحالات. لقد أدى تحرير وهران في ١٧٩٢م إلى تراخي العلاقة التي طالما جمعت هذه الطرق الدينية بالبايك في إطار الجهاد ضد المسيحيين، وهو ما عبرت عنه الرعية من خلال رفض دفع الضريبة مدعومة من قبل الدرقاوية والتيجانية. ولذلك عرف بايك الغرب منذ الربع الأخير من ق ١٨م ثورات متتالية لم تتوقف حتى انهار الحكم العثماني في الجزائر. ولم يكن موقف القادرية من السلطة مختلفاً خصوصاً مع الاستفزات التي تعرض لها رجالها كالشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد ساهم الريف - باعتباره القاعدة التي يركز عليها اقتصاد إيالة - في دعم الخزينة بالضريبة، وتزويد المدن بالمواد الأولية الضرورية للصناعة كالحبوب والأصواف والجلود، والتقليل من شبح المجاعة من خلال الإنتاج الذي كان يوفره. كما ساهم سياسياً بالمشاركة في مقاومة الوجود الإسباني ورد محاولات التوسع المغربية. غير أن هذه المزايا كلها لم تفتح أعين البايك على ضرورة الاهتمام بالفلاح ودعمه، فقد فرض عليه الجمود حين حيل بينه وبين التوسع في الأراضي السهلية، وأجبر على الانغلاق على نفسه في المناطق الجبلية كالونشريس وطرارة، فانطوى بممارسة الرعي المتنقل بالهضاب العليا وسهول وهران، وأثقلت كاهله الضرائب، وبذلك أحس بالتهميش، وانتهى هذا الإحساس بالثورة.

وإذا كانت هذه الثورات موضوعية في نظر الكثير من الباحثين فإنها في المقابل أفقرت المجتمع الريفي كما أنهكت قوى النظام، فعوض العمل على تطوير جوانب الحياة المختلفة - كما كان الحال في قارة الثورة الصناعية - بؤدت الطاقات في هذا الصراع الذي استغلته فئات معينة - كأثرياء المدن والتجار اليهود والوكالة الإفريقية - لجمع الثروة وخدمة المصالح الأجنبية، في الوقت الذي كانت السلطة غافلة عما يحاك ضد البلاد في المحافل الدولية. لم يكن الريف في الغرب الجزائري إذن بمنأى عن التحويلات الخطيرة التي عرفتها المنطقة في إطار تحرك الآلة الاستعمارية، ولعل ما حدث بعد ١٨٣٠م مباشرة يدل على المسؤولية العظمى التي تكفل سكان الريف بحملها من خلال المشاركة في مقاومة الأمير عبد القادر والتصدي للتوسع الاستعماري الفرنسي، متحملين أعباء ترك الأرض والانتقال من جهة إلى أخرى.